إيمان القدوسي...وواقعية الأدب

قراءة نقدية في قصة "العجرية"

د/ كمال سعد محمد خليفة أستاذ الأدب والنقد المساعد في جامعة الأزهر

أولا : النص الأدبـي :

الغجـــــــرية

للكاتبة : إيمان القدوسي : تاريخ النشر : ٢ - ٣ – ٢٠٠٨

"السابعة إلا الربع موعد الاستيقاظ اليومي ، النوم يحلو فـي عيـون ناديـة وتقاومه بصعوبة تتمني وقتا إضافيا ولكن لا يمكنها ذلك ، مدت يدها لتوقظ زوجها (هيا يا حسن) ولكنها وجدت مكانه باردا .

بطريقة آلية أيقظت الولد والبنت وجهزتهم للمدرسة وعندما ركبا الأتـوبيس ظلت تتابعه من الشرفة حتى اختفي عن ناظريها ، الولد الصغير يلوح لها بيده من خلف الزجاج ، كان يلوح من قبل بيديه الاثنتين ، الأخرى كانت لأبيه .

إفطار كل يوم ساندوتش جبنه بيضاء وكوب شاي ثم الانطلاق إلي العمـل ، أخصائية اجتماعية في مدرسة بنات ، عندما أقبل المترو استبشرت خيرا ، أفـضل طريقة لمقاومة فلول الذكريات التي تداهمها هي أن تحشر نفسها وسط الغربـاء ، انتظرت عربة الحريم ووجدت مكانا جلست فيه ، سوف تتأمل من حولهـا لتـشغل نفسها ،لابد من أن تكف عن التفكير في " حسن " فهو لم يعد زوجها ، ألم تكـن لفظة الطلاق هي كلمة النهاية في علاقتهما ؟.

تناهى لسمعها واحدة تتكلم عن الإسكندرية ، لم تلـتقط أذنهـا سـوي كلمـة " إسكندرية " وتوالت الذكريات أيام الزواج الأولى وأوقات المصايف وفجأة يبرز وجهـه المخيف وهو يلقي بكلمة الطلاق في وجهها ، انتفض جسدها فزعا حين سمعت صوتا ناعما لعوبا يهمس في أذنها (ما دمت تحبينه إلي هذا الحد ، طفشتيه ليه ؟) .

التفتت لتجدها جارتها في المقعد سيدة في منتصف العمر لكنها ذات جمال مـن نوع خاص تميزها عيونها الواسعة الكحيلة وابتسامتها الناعـسة ، بادرتهـا بـالقول (تهيمين في عالم تاني ، ولا تدرين بمن حولك ، تارة تبتسمين وتارة يكفهر وجهـك وتفر الدموع من عينك ، من تجربتي أنت تفكرين في رجلك الذي ابتعد عنك

قالت نادية :

ـــــ من أنت ؟) .

ردت :

ـــ (محسوبتك هند الغجرية) .

قالت نادية بتعجب :

ـــ (غجرية !!) .

ـــ ردت (نعم ، لكني لست من النَّوع الذين يسرقون الكحل من العين ، وعندي حل لمشكلتك .

ـــ قالت نادية : (وهل تعرفين مشكلتي ؟) .

ـــ نعم أعرفها !! ، أنت بنت مدارس .. تعلمت الحياة من الكتب ولم تعيشيها ، أما أنا فأعرف أسرار النساء والرجال ، وأستطيع أن أقول لك : ما الذي حدث بينك وبين زوجك ، أليس زوجك ؟ !) .

ردت نادية كالمأخوذة :

ـــ نعم كان زوجي وأبو أولادي .

قالت الغجرية :

ـــ أنت بنت ناس حلوة ومتعلمة عندما رآك أعجب بك وتزوجك وأنت أيضا أحببتيه ربما أكثر مما يجب وتفانيت في إسعاده وجعل حياتكما أفضل وكانت هذه غلطتك ..

اتسعت عيني نادية دهشة لكن الغجرية أشارت لها بيدها فلم تتكلم وواصلت هي :

ـــ غلطتك إنك ركزت فيه وأغرقتيه باهتمامك ونصائحك وتعليماتك فاختنق الحب بينكما ، كان هو يحتاج جرعة أقل من الاهتمام وكان يحتاج منك الإعجاب

والانبهار وأن تشعريه بحاجتك إليه ، لكنك كنت تفعلين كل شئ وحدك وكان ذلك يشعره بأنكم لا تحتاجونه وأنه لا يعجبك ولا يملأ عينك وإلا ما كنت حاصرتيه بالنصائح والتوجيهات .

ـــ ما هو عملك) ؟

ردت :

ـــ (أخصائية اجتماعية في مدرسة).

قالت الغجرية :

ـــ أبله يعني !، نصيحتي لك كوني أبله في المدرسة وامرأة في البيت ، قبل أن تأخذه منك امرأة عابرة في حياته ، أنت أفضل منها في كل شيء لكنها تجيد القيام بدورها وتشعره أنه رجلا وفارسا ومنقذا فيسعى إليها وتندمين ..

ثم تنهدت وضحكت ضحكة خافتة وهي تربت علي كتف نادية :

ـ فوتك بعافية يا أبله .. نازلة المحطة دي مع السلامة وفكري في كلامي.

شعرت نادية أن الغجرية فتحت عينيها علي حقيقة طالما تجاهلتها ولم ينبهها إليها أحد، عندما تفسد علاقة كانت ناجحة من قبل فلا بد أن هناك أخطاء من الطرفين، لكنها لم تكن تعرف فيما أخطأت ، كان عليها أن تهتم بنفسها ونجاحها لتظل متألقة جذابة وتدع لزوجها فرصة لمشاركتها المسئولية ، كان عليها أيضا أن تكون متجددة لتعطيه فرصة اكتشافها مرات ومرات ، ولكنها كانت نمطية وتدير الحياة وفقا لعقلها ورؤيتها فقط ، وفهمت جملته التي كانت تثيرها (تمام يا سيادة المديرة) .

عندما جاء (حسن) لرؤية الأولاد كان هو أيضا مختلفا، كان رقيقا حانيا يتلمس الطريق لقلبها ولما كانت ما زالت في فترة العدة فقد كان قرار العودة فوري وسريع ، بعد أيام سألته :

ـــ ما الذي غيرك ؟

قال :

ـــ لم أطق بعدي عنكم .

ـــ وأنت؟

قالت :

ـــ أردت أن أكون امرأة ."

ثانيا : الدراسة الفنية :

منذ وقت مضى، وأنا أتابع الكاتبة " إيمان القدوسي[1]" فيما تكتبه، عبر النوافذ المتاحة لها، في " جريدتي الوسط والمصريون".. فأقرأ لها مثل ما أقرأ لغيرها ، ممن تروقني كتاباتهم ، سيما من الكاتبات الفضليات مثل الكاتبة اللبنانية " سحر المصري " ... لكن ما لفت نظري، وشد انتباهي أكثر نحو الكاتبة " إيمان....." إلى أن أراجع ما كتبته من مواد أدبية وصحفية، عبرتلك النوافذ!!، هو مشاركتها المنشورة في صحيفة " المصريون" الغراء ؛ قصة " الغجرية" ، المنشورة في : ٣/ ٣/٢٠٠٨م ، جعلتني هذه القصة القصيرة ، أعيد النظر في هذا النوع من كتاباتها، وأراجع مشاركاتها العديدة التي كنت أطالعها على عجل ، وأدهش لمعالجاتها البديعة لموضوعاتها، وياتتملكني الدهشة و الانبساط لما تصنعه من مفارقات رقيقة وطريفة ـــ إذا جاز التعبير ـــ في قصصها .

الكاتبة " إيمان القدوسي "من خلال معالجاتها لموضوعاتها، التي تدنو كثيرا من عالم القص الإبداعي، تحاول أن تصور الواقع الذي تحياه وتضفي عليه من ذاتها... تحاول أن تجعل من ذاتها"كاميرا" ـ إذا جاز التعبير ـ تصور بها معاناة مجتمعها ؛ معاناتها هي ، في هذا الواقع !! ؛ لأنها جزء منه .وليس باستطاعة

---

(1) إيمان القدوسي : كاتبة مصرية ، تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة " وتعمل صحفية في مجلة " المختار الإسلامي " القاهرية ، وهي عضو عامل في نقابة الصحفيين، ولها مشاركات إبداعية وفكرية منشورة في صحف ودوريات مختلفة ..

الأديب الحقيقي أن ينفصل عن واقعه مهما كان مؤلما. وهذا ما حاولت أن تفهمنا إياه فيما قالته في إحدى مشاركاتها [1]: "الأدب مرآة المجتمع، والأديب فنان يستخلص الجمال من محيطه وبيئته، ويعرضه؛ ليعكس صورة مكثفة لكل العناصر الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة بمجتمعه. وليس المقصود بالجمال هنا: تزييف الواقع، أو تصويره بلون وردي ، ولكن الإبداع الحقيقي هو: تحويل الحقيقة بكل مآسيها وكوارثها وقبحها إلي عمل فني راقٍ وخالد، يؤثر في وجدان القارئ، ويستثير خياله، ويشترك معه في محاولة العثور علي أجوبة للأسئلة المعلقة التي تطرحها الحياة .

وهذا ما يؤكده حتى دعاة الواقعية الاشتراكية التي تحتم علي الكاتب عندما يصور الشر لابد له"ان يبث في تصويره (...) دواعي الأمل في التخلص منه ،فتحا لمنافذ التفاؤل حتى في أحلك المواقف [2]" ومن ثم يصبح الأدب ذا رسالة اجتماعية تسهم في النهوض بالمجتمع ، وتدفعه نحو الازدهار ، بحيث يلتحم الأديب بعصره الذي يعيش فيه ويشارك في معالجة قضاياه وهمومه ، " فالوعي الحسي للكاتب ، يحتم عليه اشتراكه في مسائل قومه ، ومسائل العالم من حوله ، كي يصور عالمه الذي يحيا فيه ، قاصدا إلى تصويره وخلقه خلقا جديدا [3] وإذا كانت هذه رؤية الواقعيين الاشتراكيين ، فإن مدرسة الإبداع الإسلامي ، والتي تنتمي إليها الكاتبة تكشف عن رؤية بنائية حضارية تسمو بإنسانية الإنسان نحو الأفق المنفتح علي العالم ، والمنبثق عن تصور يستخدم "أقصى طاقات أدوات التعبير وتطويرها عن رؤية الفنان لواقعه "[4] الذي يطرح عليه من ذاته ورؤيته ، ما يحيله حيا مَوَّارا

---

(1) (بلا شك " مكتوب") : منشورة في صحيفة" المصريون" في :٢٠٠٨/١/٣١م)..

(2) الأدب المقارن ص ٣٨١ دكتور محمد غنيمي هلال ــ دار نهضة مصر ــ ثالثة ــ د ت ــ القاهرة.

(3) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(4) الروائي والأرض ص ٣٣وعبد المحسن طه بدر ــ دار المعارف ــ ثالثة ــ ١٩٨٣ ــ مصر.

نابضا.. فالفن في أبسط صوره مثير للقلق ، باعث للألم ، لكن بصورة مخالفة للحياة ف الأديب (لا ينسخ ـــ كما يقول الروائي" سومرست موم " ـــ نسخا من الحياة نفسها ،لكنه يقتبس منها ما هو بحاجة إليه، يضع ملامح استرعت انتباهه هنا ، ومن ثم يأخذ في تشكيل شخصيته ، ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل ، بل يعنيه حقا، هو أن يخلق وحدة منسجمة محتملة الوجود تتفق وأغراضه الخاصة)[1] ، وذلك لأن (الفن والحياة شيئان متباينان ، والوجود في أحدهما يختلف عن الوجود في الآخر ، فالحياة تفرض علينا وجودا مستمرا ، بينما الشخصية في القصة ، لا تظهر إلا في الأوقات التي ينتظر منها أن تقوم بعمل ما ، بينما نحن في حياتنا الواقعية نعيش أياما بل وسنين دون أن نعمل عملا مهما يلفت النظر...)[2] ... من ثم يكون "الأدب هو الجزء الأفضل من الحياة ، شريطة أن تكون الحياة هي الجزء الأفضل من الأدب "[3]

فالواقع ، (الحياة) يعد مصدراً رئيساً ومهما من بين مصادر الإبداع الأدبي عامة ، والروائي خاصة بشرط أن يسلط الكاتب قوة الخيال الفني في خلق هذه الشخصيات ، وإلا أضحت شخصيات ممسوخة مما هو حي في الواقع ، فتصبح مكررة ، ومملة... ، فالأديب الروائي "ترجنيف " اعترف بأنه : لا يستطيع أن يخلق شخصية من الشخصيات إلا إذا سلط قوة خياله على شخصية حية من الشخصيات التي تتحرك من حوله).[4]، والأديب الحقيقي ابن بيئته (واقعه) كما هو في الوقت نفسه ابن لذاته ، ينهل في إبداعه من الواقع الذي يحياه ، ويضفي عليه من إحساسه ومشاعره الذاتية ما يحيل هذا الواقع شيئاً جديداً يختلف عن هذا الواقع ، وإن استمد منه صوره ومقوماته .. وهذا ما تراه واضحا فيما يمكن أن نسميه بشهادات هؤلاء الكُتَّاب المبدعين في عالم الرواية أو القصة .

---

(1) فن القصة ص ٩٣ ــ د.محمد يوسف نجم ــدار الثقافة ــ بيروت .

(2) المرجع السابق نفسه والصفحة

(3) الواقعية ص ١٠٥ ــ دكتور ديمين كرنت ترجمة ــ عبد الواحد لؤلؤة ــ

(4) السابق : ص ٩٠ .

فالأديب (يوسف السباعي) يؤكد على هذه الحقائق التي ذكرنا ، فيقول : [1] " أنا أعتقد أن الكاتب مقيد بالتعبير عن مجتمع عاشه ، وتشابك معه في علاقات مختلفة ، وتولدت لديه خبرات متباينة ، هذه هي الأرضية التي يقف عليها ... وأنا مهما اتسعت رقعة تفكيري وارتباطاتي ، فأنا مقيد دائماً بما أعرف ، وإن كان ما أعرف متعدد الجوانب مكانياً ، فأرضية كتاباتي الأولى تقوم على حارات القاهرة التي عشت فيها صباي ... فأنا ملزم في كتاباتي بالواقع الذي عشت فيه ، والأشخاص الذين تعاملت معهم ... حتى عندما يشطح بي الخيال في بعض أعمالي ... فأنا أهبط إلى أرض الواقع لأختطف سائقاً تقابلت معه في حيأتي أو سقا [2] ، وحاملي مجابير ، ومكبساتي في حمام أو سارق جوافة...وعلى كل فمهما كان منطلقي في الكتابة فهو مشدود إلى أرض الواقع."

وكذلك الروائي الكبير كاتب العربية الأول في العصر الحديث " نجيب محفوظ " يحاول أن يرينا شخصيات وهي تخرج من هذا المنبع (الواقع) وتطل علينا عبر نوافذه الممتدة فيقول :

" إن تسعين بالمائة من شخصيات الثلاثية لها أصول واقعية ، بعضها من عائلاتنا ، وبعضها من الجيران ، وبعضها من أقارب ، فأحمد عاكف ــ مثلا ــ شخصية حقيقية كان موظفا في الجامعة بالتحديد في إدارة الجامعة ، قرأ الرواية بعد صدورها ، ولم يعرف نفسه ، لم يعرف قط أنني استوحيت بطل الرواية منه هو ... بالطبع الشخصية الواقعية (الحقيقية) تُنْسَى ، لان الخلق يحيلها إلى شيء آخر ...

---

(1) حوار مع هؤلاء : ص ٦٣ (كتاب) للأستاذ عبد الرحمن أبو عوف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ رقم (٢) الثقافة الجماهيرية مصر .

(2) السقا بالمد وهو من يحترف بحمل الماء إلى المنازل ونحوها وهي سقاءة ، ورجل ساق من قوم سُقاء وسقّاءين . لسان العرب لابن منظور ٢٠٤٣/٣ ، والمعجم الوسيط ٤٣٧/١ ، مجمع اللغة العربية مادة (سقى).

الأصل في الواقع ينسى ، ولا يُعْرَفُ تاريخياً إلا طبقاً لتسجيلك أنت ... " [1]، فهو يأخذ الملامح التي تكشف عن رؤيته للإبداع الفني ويغير فيها ، بحيث تسهم في تحقيق هدفه ، وبذا يكون قد خلقها على نحو ليس موجوداً بِحَرْفِيَّتِهِ ، بل تصبح شخصية جديدة منفصلة عن الشخصية التي أخذ منها ، ومرتبطة ـ في الوقت نفسه ـ بها في شيء ما .

والروائي الإسلامي الكبير المرحوم " نجيب الكيلاني " حين يتحدث عن رحلته مع الإبداع الأدبي لم يخرج عن هذا الإطار مثلما فعل سابقوه إلى الاعتداد بالواقع الذي يحياه وتعانيه نفسه ، فراح (يعبر عن القضايا الاجتماعية التي تهم جموع المستضعفين في الوطن ، ويبرز ما يلقاه الناس من ظلم وقهر واضطهاد ، ويتخذ من تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية ، عناصر أساسية يتركز عليها في بناء رواياته) [2] فيقول :

" لم يكن ما كتبت بعيداً عن الواقع ، واقع الحياة المر ، ومتاهاتها المظلمة وأسوارها العاتية ، وتناقضاتها الرهيبة ، كنت حريصاً على أن أتجول ـ وأنا أكتب ـ في حواري القرية وحقولها وعذاباتها ، أتملى ملامح الناس ، وأستقرئ هواجسهم الداخلية ، وأبعث الحياة في حقوقهم الميتة المدفونة في قاع الجهل والنسيان والقهر " [3] طارحاً موقفه من هذه الهموم ومحاولاً تشخيصها لتقديم العلاج الناجح لها ، المُسْتَلْهَم من التصور الإيماني الذي يبعث الأمل ، ويحمل على الخير مهما كان الظلام مُدْلَهِمًّا ، والظلم قاسياً ، إلا أنه يهجع إلى ظلال الإيمان

---

(1) نجيب محفوظ يتذكر ص ١٠١ وما بعدها جمال الغيطانى مطابع أخبار اليوم ثالثة مصر ، وهناك نصوص متعددة تدور حول هذه الفكرة (الواقعية) في الصفحات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٢٠ من الكتاب نفسه .

(2) الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني مقال بمجلة الفيصل عدد ٢٢١ للدكتور / حلمي محمد القاعود.

(3) رحلتي مع الأدب الإسلامي : ص ٢٨ ـ مؤسسة الرسالة ـ أولى ـ ١٩٨٥م.

الوارفة ينعم بظلها ، ويحتمي بما تتيحه له من نبع ورخاوة تطمئن نفسه ، وتثري روحه ، وتنعش ذاته ...

فالواقع يمنح الأديب، أو الروائي مساحة لا بأس بها من الاختيار والانتخاب، وتقديم شخصيات ينعكس على صفحاتها تصور الكاتب ، ورؤيته لهذا الواقع الذي يحياه بين أفراد مجتمعه

فالواقعية التي تنشدها الكاتبة، ونحن بدورنا نلمسها في إبداعها، واقعية معجونة بالأمل، ومرارتها محلاة بعبير الحب والود ، والتناغم الذي يصنع – إذا جاز التعبير – حالة من التواصل والتماهي في هذا الواقع ..تنطلق من رؤية إنسانية منبعها الإسلام ، ذلك الدين الذي يحفظ للإنسان توازنه أمام نزعات النفس ،وينتشله من السقوط واللهاث وراء مغريات الحياة، لآن العقيدة الإسلامية " طريقة حياة ،لا طريقة فكر ودراسة وكفى ، لكنها حاجة النفس كما يقول العقاد[1](يرحمه الله). والإسلام عندما يقيم علاقاته بين البشر : الإنسان بالإنسان ، والإنسان بالكون ، " تقوم هذه العلاقات على أسس حضارية ، تجيش بالحب ، حين يجيش غيرها بالكراهية، وتلتقي على البناء، حين يلتقي غيرها على الهدم، وتتوافق مع الفطرة ، حين لا يتوافق غيرها إلا مع الأهواء [2]" .

فوظيفة الفن – كما طرحنا في كلام الأستاذ الدكتور :عبد المحسن طه بدر[3] –" لا تخرج عن عملية الكشف بأفضل الوسائل الممكنة، وباستخدام أقصى أدوات التعبير عن رؤية الفنان" .

---

(1) نقلا عن : في الغزو الفكري. ص : ٦١ للدكتور : أحمد السايح ، كتاب" الأمة" عدد[٣٨] ـــ قطر.. والكلام للأستاذ" العقاد" ولم يثبت الدكتور : السايح مرجعه .

(2) في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية ص:٣٨ ،٣٩ للدكتور : محمد أحمد العزب – المجلس الأعلى للثقافة –١٩٨٣ – القاهرة .

(3) الروائي والأرض . ص : ٣٣ – دار المعارف – ثالثة – مصر .

وليس هذا معناه، أن تنقل الأديبة الواقع أو تطبعه طبعا مماثلا" صورة طبق الأصل " كما هو على صفحات القصة (العمل الأدبي)، لكن الأديب الحقيقي ــ في رأينا ــ عندما يستلهم الواقع أو يوظف مفرداته في عملية الإبداع ، لابد له من أن يسمو على هذا الواقع ويعانقه ، فيطرح عليه من ذاته ورؤيته، ما يحيله حيا نابضا .فالفن ـــ كما ذكرنا ـــ مثير دائما للقلق، وباعث للأمل، ولكن بصورة مخالفة للحياة ، أو على الأقل ليست مطابقة لها تماما ..

فالواقعية في رؤية الإسلام، ليست هي الواقعية السوداء، التي تدعو للانغماس في الواقع المادي حتى القاع، فيصفون التجربة كما هي واقعة في الخارج، حتى ولو كان هذا الخارج مزريا !! ونسوا أن الواقعية الحقيقية لا تخرج عن كونها " فلسفة خاصة في فهم الحياة والأحياء ــ كما يقول الأديب الإسلامي الدكتور نجيب الكيلاني([1])ــ .والرؤية الإسلامية تضفي عليها شيئا من مقوماتها ومعطياتها؛ لتصبح واقعا ملائما للمجتمعات التي تحتمي بالعقيدة وتؤمن بها ،حتى يبدو انفعال العقيدة بالواقع انفعالا حقيقيا. ومن ثم، يصبح الأدب" في التصور الإسلامي: تعبير فني جميل ومؤثر.. نابع من ذات مؤمنة .. مترجم عن الكون والحياة والإنسان.. وفق الأسس العقائدية للمسلم .. وباعث للمتعة والمنفعة.. ومحرك للوجدان والفكر.. ومحفز لاتخاذ موقف والقيام بنشاط ما " ... " فيبدو الفن بهذا الحضور، وكأنه جزء من الدين ، أو نبض من نبضاته، ومعبر عن روحه، من أجل سعادة حقيقية خالدة وممتدة، سيما إذا كان الدين لم يأت إلا لتنظيم حياة البشر، وإقامتها على أصول ثابتة واقعية ومنتظمة ،تحمي ذلك الكيان ،وتفتح الطريق لنموه المستمر ، وتخلق فيه الحوافز البناءة ، وتمده بالأمل والشوق إلى ارتياد المجهول[٢] . والواقع بهذا المفهوم يؤكده الإسلام ويثريه ويحفز عليه ، فإنه

---

(1) الإسلامية والمذاهب الأدبية . ص : ١١١ ــ مؤسسة الرسالة ــ رابعة ــ ١٩٨٥ م ــ بيروت .

(2) حول الدين والدولة . ص : ٥٤ : نجيب الكيلاني ــ دار النفائس ــ ثالثة ــ دت ــ بيروت .

لم يكن واقعا مفروضا من قبل صفوة ممتازة ، أو طبقة كادحة ، أو واقعاً مادياً محسوساً قصير النظر ، إنما هو الواقع الأرضي الذي لا ينفصل عن الواقع السماوي بحقيقته العليا ، وروحانيته وإعجازه وقَدَره ؛ (إنه الواقع الإسلامي الشامل لكل عناصر الواقع القائم واحتمالاته غير المنظورة أو المدركة) [1] النابع من الفطرة الإسلامية الشاملة ، والمنظمة لهذا الكون بما فيه ، ومن فيه ، في جميع أطواره مهما اختلف الزمان والمكان ..

وليس معنى هذا أن تكون الشخصيات المبدعة في صور مثالية ملائكية مطلقاً، فهذا ما لا يمكن تحقيقه على الأرض ، فالشخصية الإسلامية نمط بشرى يتصرف تصرفات البشر ، ولكن هناك ما يحميه وينتشله من السقوط دائماً ، فالعقيدة هي (الأمر الذي تثق به النفوس ، ويطئمن إليه القلب ، ويكون يقيناً عند صاحبه ، ولا يمازجه فيه شك ، ولا يخالطه ريب ، بحيث لا يستغني عنها من وجدها ، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها ، ولا يرفضها من اعتصم بها بمعتصم ، واستقر فيها على قرار) [2] ، لاسيما إذا عرفنا أن الإسلام عندما يقيم علاقاته بين البشر ، الإنسان بالإنسان ، والإنسان بالكون ، والإنسان بالتاريخ (تقوم هذه العلاقات على أسس حضارية حميمة ، تجيش بالحب حين يجيش غيرها بالكراهية، وتلتقي على البناء حين يلتقي غيرها على الهدم ، وتتوافق مع الفطرة حين لا يتوافق غيرها إلا مع الأهواء) . [3]

والواقع من خلال التصور الإسلامي ، ليس ما تعنيه تصورات وضعية كالماركسية ، والرأسمالية ، إنما هذا الواقع ينطلق من العقيدة الإسلامية التي هي

---

(1) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد : ص ٣٣ ــ بتصرف د / أحمد بسام ساعي ــ دار المنارة ــ أولى ١٩٨٥م ــ جدة .

(2) في الغزو الفكري: ص٦١ ــ د / أحمد عبد الرحيم السايح ــ كتاب الأمة عدد ٣٨ . قطر .

(3) في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية : ص ٣٨ ، ٣٩ ــ د / محمد أحمد العزب ــ المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣م. القاهرة .

في مضمونها (طريقة حياة، لا طريقة فكر أو دراسة وكفي ، لكنها حاجة النفس)[1] في محياها وحتى بعد مماتها ، وكل ما بينهما من مسافات شاسعة ممتلئة بهذه الاحتياجات المتباينة .

فهذه العقيدة تحمى من ينضوي تحتها من الذوبان في خِضَم الحياة ، كما تحفظ توازنه أمام حاجيات النفس ، ونوازعها ، وتحمله حملاً على السمو والتفرد، فلا علاقاته وصلاته الاجتماعية ، سواء كان ذلك بين الناس والأفراد ، أو الجماعات ، أو الأمم ، في محيط الأسرة والوطن والعالم كله كي يسعد وينهض ، ويبني ويعمر ، يستمد كل هذه المقومات من ديانته الربانية ، (لأن الإنسان بدون هذه العقيدة ، يصبح كالريشة المعلقة في مهب الرياح ، تحوله يمينا ويساراً ، كيفما تشاء ، فليست له جذور تحميه من اقتلاع نفسه من المجتمع ، فسرعان ما تجتث من فوق الأرض ... أما العقيدة ، فتقف سداً منيعاً بين الشخصية وبين هذه الرياح الخبيثة ، أو المذاهب المقتحمة ، فتعطى إعماقاً للصروح والمجتمعات والأفراد ، كما تمنح استقرارا وثباتا للإنسان في الحياة). [2]

من ثم تضحى الشخصية المستدعاة من هذا الواقع ، المستضئ بالتصور العقدي الرباني ، كشجرة طيبة أصلها ثابت في الأرض ، وسامقة فروعها بما تحمله من خير ، فتطلق يدها في المجتمع فتؤتى أُكلها الطيبة كل حين ، وفي كل مكان بإذن ربها ... فتتأبى على الضياع ، أو الانهيار ، أو السقوط في المجتمع ...

فالأديب دائما ما يحث المتلقي على التعلم من أخطاء الآخرين ، ويحفزه على التشبث بالحسن الجميل، والاستعلاء على مشكلات الحياة ، ونوائبها التي قد تجرف الخائرين، أصحاب العزائم المهيضة ..فالإنسان في الإسلام نمط بشري يتصرف مثلما يتصرف البشر ، لكن هناك ما يحميه من السقوط ، فالعقيدة التي يؤمن بها

(1) نقلاً عن في الغزو الفكري ص ٦١ ، والكلام للأستاذ عباس العقاد لم يثبت مرجعه .

(2) في الغزو الفكري : ص ٦٢ ــ د / السايح ..

هي التي تحميه من الذوبان في خضم الحياة ، وتحفظ توازنه أمام حاجيات النفس ونوازعها، وتحمله حملا على السمو والتفرد في صلاته وعلاقاته الاجتماعية.

من ثمَّ، نرى الكاتبة تحاول قدر الطاقة، وبوسائط فنية متعددة ، وإن كانت فقيرة ومتواضعة أحيانا، أن ترسم هذه الصورة النابضة للمجتمع، في تجاربها الإبداعية المختلفة..

ففي قصة " الغجرية"تحاول الكاتبة أن تتماس مع واقعها، الذي يزدحم بالمشكلات الإنسانية، وتدنو من أنماطها الاجتماعية المختلفة، والمهمشة في الحياة، بالقدر الذي يهيئ لها درجة من التواصل الحقيقي، مع هذا الواقع الإنساني المحض ..

فشخصية "نادية" الزوجة المطلقة حديثا!! ما زالت مأخوذة من هول المصيبة التي حلت بكيانها، وتكاد أن تهوي بمجتمعها الصغير (الأسرة)... ما تزال في حالة انعدام وزن ..وإن كانت ــ في الوقت ذاته ــ تزيد من معاناتها، عدم قدرتها على الانفصام النهائي، أو الانفصال الحقيقي عن عالم الزوج " حسن" ؛ الذي غمرته يوما بحبها ودفئها !!....فها هي دون أن تدري شأن كل زوجة مخلصة، تعرف قيمة الزوج في حياتها، وتعرف حدود ربها ودينها الذي نظم علاقتها بهذا الزوج.. تصحو مبكرًا؛ لتوقظ زوجها وربان سفينتها " حسن" !!.....لكن المفاجأة تباغتها "... فتجد مكانه باردا !! "... وبرودة المكان ، ربما ترمز هنا إلى برودة حياتها، التي غشيت عالمها،وكادت أن تجعل الدماء تتجمد في عروقها!! . هنا ، وهنا فحسب ، تدرك "نادية" عمق مأساتها، وكيف جثم على صدرها هذا الواقع الأليم الذي بدأ يكتنفها ، ويلف كيانها كالليل البهيم ؟!!

من ثم، هرعت إلى روتينها اليومي، تستنجد به.. علَّه ينتشلها من هذا الواقع المضني، تهرب إليه من قسوة الحقيقة!!... تحاول أن تتجاوزه.. تستعلي عليه بإيقاظ أولادها، وإعداد "السندويتشات"، وتجهيزهم للذهاب للمدرسة !! تهرب إلى عالم الغرباء (المترو)... وتنغمس في ضجيجهم ... لكن دون جدوى!!!!

فالحقيقة السافرة، هي أن جميع حواسها متحفزة للتمرد على هذا الواقع !! لكن من أين لها ذلك ؟؟؟

هذا هو الفرق بين الحياة التي يحياها الناس في دنيا الواقع ، وتلك الحياة الإبداعية التي يعيشونها في الفضاء الإبداعي الأدبي . يحاول الأديب أن ينعتق في عالم الفن (القصة)، أو واقعه، مما يخبئه له الواقع المعاش، بكل طاقات الانحراف فيه ، ويسمو بهذا الواقع إلى حيث الفطرة النقية ، ويركن إلى التوافق النفسي قدر الطاقة. وإن عراه شيء من القلق أو الاضطراب ،فإنهما يأخذانه إلى حيث يقف الرضا بالقدر، والإيمان به؛ لتتوافق نفسه مع حركة الكون ، في إطار التصور الإيماني، الذي يحكم النفس الإنسانية ،وينظم حركتها في الحياة . فتحيا في الجزء الأفضل منها...كما ذكرنا ـــ كما في قول ديمن كرانت في كتابه" الواقعية" الذي ترجمه الدكتور: عبد الواحد لؤلؤة : إن الأدب هو الجزء الأفضل من الحياة شريطة أن تكون الحياة نفسها، هي الجزء الأفضل من الأدب " ..

فالأديب المسلم واقعي بطبعه ، ومثالي بطبعه أيضا ..واقعي ؛ لأنه يواجه قضايا مجتمعه وعصره ، يتأثر ويؤثر ، ويسهم في حلها بالتفسير أو التعبير، وبالتغيير أيضا ، ويكشف عن جذورها ومسارها ومآلها "ومثالي ؛ لأنه يحلم دائما بالصورة المثالية التي يجب أن يكون عليها المجتمع ، ويحلم بالمثل العليا التي تشربها علي يد معلمه الأكبر ... إنه يحلم بواقع أروع وأجمل ... فهو آمل دائما ... متجدد دائما .. عيناه إلى الأمام .. وقلبه متعلق بالنماذج البشرية المثالية الرائدة التي تخدم دائما قضية الإنسان ، والتقدم البشري ، والتفوق الحضاري، يحلم بحياة أفضل وبعالم يسوده الإخاء والحب والرفاه والعدل والكفاية)[1] .

من هنا، تحاول الكاتبة أن تحتال لفنها، فتصنع لقاءا خلقته صدفة بحتة، وعادية، للبطلة " نادية " الزوجة المطلقة ، مع الغجرية " هند" عبر تقنية الارتداد

(1) حول الدين والدولة ص ٥٤،٥٥ ـ دكتور نجيب الكيلاني ـ دار النفائس ـ ثالثة ـ بيروت.

(الفلاش باك) حيث الذكريات القديمة ، ولحظات الأنس والبهجة والمرح ؛ في عهدها الأول مع زوجها " حسن " يتأجج الوجد ، ويتوهج الحب في مقتبل زواجهما : " لم تلتقط أذنها سوي كلمة إسكندرية ..وتوالت الذكريات.. أيام الزواج الأولي وأوقات المصايف.. وفجأة يبرز وجهه المخيف وهو يلقي بكلمة الطلاق في وجهها ، انتفض جسدها فزعا حين سمعت صوتا ناعما لعوبا يهمس في أذنها: (ما دمت تحبينه إلي هذا الحد ، طفشتيه ليه ؟) .

التفتت لتجدها جارتها في المقعد، سيدة في منتصف العمر لكنها ذات جمال من نوع خاص، تميزها عيونها الواسعة الكحيلة، وابتسامتها الناعسة ، بادرتها بالقول: (تهيمين في عالم ثاني ، ولا تدرين بمن حولك ، تارة تبتسمين، وتارة يكفهر وجهك وتفر الدموع من عينيك .. من تجربتي أنت تفكرين في رجلك الذي ابتعد عنك)!! .

قالت نادية :

ـ من أنت ؟ .

ردت :

ـ محسوبتك" هند" الغجرية .

قالت نادية بتعجب:

ـ غجرية ؟!!

ردت هند:

ـ (نعم ... لكني لست من النوع الذين يسرقون الكحل من العين ... وعندي حل لمشكلتك!! .."

الغجرية، شخصية ساطعة في الذاكرة الشعبية المصرية، لها حضورها وضجيجها المحبب في واقعنا.. فهي إنسانة ذات مواصفات خاصة، ربما لا تتوفر

للكثيرات من بناتنا في المجتمع المصري !! تحاول بفراستها أن تستكنه ذوات الآخرين ، وتسبر أغوار نفوسهم ، بفطرة وبهلوانية مدهشة، اكتسبتها من حياتها.. ومن عالم هذا المجتمع الخاص ، دون أن تتعلم كل هذا في مؤسسة تعليمية ما!!. من ثم تدرك وللوهلة الأولى، معاناة جارتها!!.. التي جلست على المقعد المجاور لتوها!! .. الشاردة في ذكرياتها القديمة في الأسكندرية " أيام الزواج الأولي وأوقات المصايف" ؟؟ والغارقة في واقعها الأليم" وفجأة يبرز وجهه المخيف وهو يلقي بكلمة الطلاق في وجهها؟؟" .فكانت"هند " الباب الذي شرعته الكاتبة للدخول إلى عالم البطلة "نادية"، الغارقة في صمتها، ولا يستطيع أحد مهما أوتي من قوة أن يفتض مغارة همومها ! .. كانت هند الغجرية طوق النجاة التي رمته الكاتبة بحرفية مدهشة للبطلة التي لا تجيد السباحة في الهموم والمشكلات ، تحاول أن تدفع بالأحداث خطوة إلى الأمام، في عفوية واقتدار.. تحاول أن تصنع وشيجة بين البطلة المنطوية النافرة من كل شيء .

والغجرية الشخصية الحيوية؛ المقتحمة؛ المنفتحة على كل الجهات .. فعبرها وليس غيرها، تحاول أن تضيء لنا الجوانب الغائمة في شخصية نادية، التي لم يكن باستطاعتها هي أن تكشف عنها ، ولا نحن مهما كانت براعتنا أن نسبر غور هذه المناطق المعتمة القابعة في دهاليز النفس :

ـ عندي حل لمشكلتك !!.

قالت نادية:

ـ (وهل تعرفين مشكلتي ؟)

ـ (نعم أعرفها، أنت بنت مدارس، تعلمت الحياة من الكتب ولم تعيشيها. أما أنا فأعرف أسرار النساء والرجال، وأستطيع أن أقول لك ما الذي حدث بينك وبين زوجك ، أليس زوجك ؟!!)

ردت نادية كالمأخوذة:

ـ (نعم كان زوجي ،وأبو أولادي!!) .

قالت الغجرية:

ـ (أنت بنت ناس؛ حلوة ومتعلمة.. عندما رآك أعجب بك وتزوجك ..وأنت أيضا أحببته؟ ربما أكثر مما يجب!! ،وتفانيت في إسعاده ،وجعل حياتكما أفضل، وكانت هذه غلطتك) ..

اتسعت عينا" نادية" دهشة!! لكن الغجرية أشارت لها بيدها فلم تتكلم. وواصلت :

ـ هي غلطتك أنك ركزت فيه، وأغرقته باهتمامك، ونصائحك، وتعليماتك، فاختنق الحب بينكما... كان هو يحتاج جرعة أقل من الاهتمام...كان يحتاج منك الإعجاب والانبهار، وأن تشعريه بحاجتك إليه... لكنك كنت تفعلين كل شيء وحدك.. وكان ذلك يشعره بأنكم لا تحتاجونه.. وأنه لا يعجبك، ولا يملأ عينك !! وإلا ما كنت حاصرتيه بالنصائح والتوجيهات".

الغجرية المرأة المكشوفة الوجه، ذات العينين الواسعتين اللتين زاد من اتساعهما وجمالهما الكحل الذي تضعه فيهما، مما يزيدها جرأة واقتحاما.. هي التي استطاعت أن تقتحم عالم هذه المرأة دون استئذان!! هي وليس غيرها ، التي استطاعت بذكائها الفطري ، أن تعري هذه المرأة ، وتمزق عن نفسها أستار الصمت المغيل !! وتبدد ذهولها الداكن ! عيون الغجرية الواسعة كانت" الكاميرا " أداة التصوير التي لعبت بها الكاتبة ببراعة ، كي ترصد لنا بدقة تلك الملامح المختفية في زوايا نفس " نادية " وتلافيفها المعتمة ، سبرت لنا أغوار الظلام والعتمة التي تَغْرَق" نادية" في قاعها، أبرزت لنا عبر " كاميرا / الغجرية" جوانب لم يكن من الممكن أن نصدقها، لو كانت "نادية" نفسها هي التي كشفت عنها !! . ومن هنا،تنتشلنا الكاتبة من غابة الحيرة وعنفوان الغموض ، الذي كان يكتنف

المشكلة وصاحبتها ، فكشفت لنا أبعادها. وهذه عبقرية تحسب للكاتبة، وأن كنا لانعفيها من وجود فجوات فنية ـ إذا جاز التعبير ـ بين المشاهد الفنية، كما جاء في مشهد لقا ء"حسن " الزوج بمطلقته" نادية" كان المشهد قفزة من فوق !!، غير محتملة ، دون مبرر موضوعي أو حيلة فنية !! هكذا مرة واحدة !!..

فالقصة القصيرة، فن يحتاج ليقظة كاتبه، واحتراف مبدعه ؛ لأنها "فن موجز؛ كثيف العبارة ، ودقيق التفاصيل، يعتمد على الإيحاء والإشارة،أكثر من اعتماده على الشرح وسرد التفاصيل، فهو يكشف عن لحظة واحدة، أو جزء من تلك اللحظة ، فهو فن لماحي ، ولو لم يدرك الكاتب خطورة ذلك، لانزلق في المباشرة، وجاء بناءه الفني رثا ومهلهلا .. لا يمت للفن بصلة ..

فكان من الأفضل والأشهى فنيا : أن تحتال الكاتبة فنيا لتدبير لقاء ما ، في مكان ما ، ربما في مدرسة الأولاد، حيث يلتقيا صدفة عندما يذهب كل منهما ليتابع الأ بناء مثلا ، أو في رحلة العودة من العمل ، أو غير ذلك ... كما كان من الأفضل أن تجعلي الزوجة " نادية " هي التي ترى" حسن " بعين أخرى، ووجه آخر، لا أن يأتي "حسن " بهذه الصورة المختلفة !! وهو الإنسان المسكين الطائع!! كما شهدت له " نادية" نفسها: " تمام يا سيادة المديرة!!" .فالمخطئ هو الذي يجب عليه تصويب هذا الخطأ ..وهذا ما قالته الغجرية، ولم تنكره في الوقت نفسه" نادية" الزوجة المطلقة؟؟! أم أن الكاتبة أرادت أن تنحاز ربما لكبرياء بنات جنسها ؟؟!! وإن كان في صنيعها هذا، ربما دون أن تدري، انحياز أيضا للرجل. فالرجل لعلوٍ في همته، وكبرياء رجولته، ينبغي له أن يحتوي ضعف المرأة. والعاقلة منهن، من تدرك أن هذا الاحتواء، هو الذي يهبها قمة الكبرياء ؛ سيما إذا ما قابلته هي بفرط الضعف !!

من ثم ، كان من الأفضل أن يأتي" حسن" الزوج بصورة مختلفة، وكذلك الزوجة، لا أقول: النادمة.... ولكن المأزومة ، والعاقلة ، بوجه أكثر إقبالا ..

أما عن مستويات اللغة في القصة، فنرى أنها جاءت ملائمة للشخوص في الأعم الأغلب، سيما والأصوات التي شاركت في إدارة الحدث كانت قليلة، صوت ،نادية الزوجة، وحسن الزوج ، والغجرية ، إلا أن حضورهما(الزوج والزوجة) كان خافتا بدرجة ما، فـ " حسن الزوج، لم يظهر إلا في لقطة واحدة ولم ينبس إلا بجملة واحدة!. أما صوت الغجرية فكان هو الصوت الطاغي بعد صوت الرَّاوِيَة. إلا أن لغتها، جاءت مضطربة،على الرغم من ظهورها في القصة كفيلسوفة مجربة !!، لكن فلسفتها جاءت إلى حد ما لدنة لذيذة !! ، ورشيقة محببة !!، بل ومدهشة !!، في الوقت نفسه. تفتح إذا ما قرأتها شهيتك للحياة، في أكثر مواطن حضورها، في فضاء القصة. برغم أنها تمارس حكيها بالفصحى حينا، و حينا آخر بالعامية. وهذا يصنع إرباكا للمتلقي،إلى جانب الاضطراب في البناء الفني .. ومن ثم، أهمس في أذن الكاتبة بأنه ليس من الواقعية كما يدعي بعض النقاد: أن تحاكي الشخصية أو الأدب لغة الواقع اليومي أو العامة ، سيما العامية، تلك اللغة الفجة التي يعدها أحد شعراء العامية الكبار " عمنا الشاعر أحمد فؤاد نجم[1] : الإنجاز الأعظم للأمة المصرية في العصر الحديث؟!!. فالأدب، يا سيدتي يهذب النفوس، ويرقى بالأحاسيس، ويسمو بالمشاعر، ويحلق في آفاق عليا، ليس باستطاعة العامية المحدودة الطاقات، أن تصل إليها... فالأدب من أسمى وظائفه ،الارتقاء بعقلية المتلقي، وترقية ذوقه ،وتهذيب مشاعره، وتغذية فكره ، بالقيم والثقافات الإنسانية والحضارية الرفيعة ، التي لا تقدر العامية على أدائها ، مهما مدح في عبقريتها المادحون.!!.

ومن ثم ، فمن المناسب أن نبحث عن لغة؛ في لغتنا الفصيحة ، ذات الثراء المعجمي الذي لا يبارى في لغات العالم، تعبر عن هوية أنماط المجتمع وشرائحه المختلفة ، دون السقوط في براثن العامية، التي تحد من تحليق الفنان، ومن طاقات إبداعه، في فضاءات الأفق الفسيح لعالم الإبداع. وهذه من القيم التي تحسب للكاتبة

(1) في حوار تلفزيوني أجري معه في قناة" الجزيرة " في برنامج "حوار مفتوح " مع الإعلامي القدير : غسان بن جدو . في مارس (آزار) ٢٠٠٨ م .

بوصفها كاتبة تترسخ أقدامها في عالم الصحافة، لكنها ما تزال تقف على شاطئ نهر الأدب العذب الرقراق . تخاف ربما أن تبتل أقدامها في مياهه، لكني أنصحها: ألا تتهيب النهر، وتخوض مطمئنة وبثقة، فإن لها أجنحة طائر محلق طليق .. فلغتها في كثير من مواطن الكتابة ، تغدو لوحات شعرية أخاذة، تنساب كلماتها في جدول رقراق، يمتاح من النهر الكبير، في رقة وانسياب وعذوبة... بعيدة عن الغموض، وتعقيداته التي يغرق فيها بعض أدبائنا ، ممن يعتقدون أن لواء إمارة الإبداع ، لا ينعقد إلا لمن أغرق في جلب الصور الغائمة !، فضلا عن المفردات المارقة في فيافي الظلام !!!..

كما لا يفوتني أن أنوه عن وقوع بعض الأخطاء النحوية والإملائية والأسلوبية،في قصتك ، التي قمت بتصويبها ما أمكن ، كما تدخلت في صياغة بعض الجمل، وحاولت تفصيحها ما أمكن كذلك، وتركت بعضها خوفا من التأثير على توهجها، من مثل :

(ــ أبله يعني! ــ فوتك بعافية يا أبله .. نازلة المحطة دي مع السلامة وفكري في كلامي ، اتسعت عيني نادية دهشة، ــ ما هو عملك ؟). كما حاولت تنسيق بعض الجمل وتشكيلها بعلامات ترقيم ملائمة؛ لأنني لاحظت إهمال هذا الجانب تماما أو يكاد، مع أهميته في الكتابة الصحفية والإبداعية بشكل خاص، إذ أن علامات الترقيم تعد لغة داخل اللغة ، وما تستطيع أن تعبر عنه علامة الترقيم الواحدة، قد تعجز عن أدائه سطور من اللغة الأم ،فهي لغة تضفي بريقا جذابا على اللغة ذاتها، التي تقيم العمل الأدبي وتنهضه .. فأمر تمام هذا كله، متروك للكاتبة، فالشكل الفني يا سيدتي يؤثر في المضمون ، فمهما كان المضمون إيجابيا ، فسلبية مقومات الشكل تقضي على هذه الإيجابية!! وتبدد طاقاتها!. ومن ثم، يقول الأديب " نجيب الكيلاني عن خبرة بالكتابة الأدبية :إن كلمات الصدق والورع والإيمان والتقوى والشجاعة ، إذا ما جاءت بمفردها عارية من الإشراقات

الروحية، التي يشعها البناء الفني ، أصبحت مجرد كلمات مملة لا توحي بشيء[1]". عندما تعيد نشر قصصها، في مجموعات في قادم الأيام..

أما نهاية القصة، فكانت بحق " ضربة معلم !!"، كما جاء في آراء بعض المعلقين، في ذيل القصة عند نشرها !. فالقصة القصيرة ــ كما يقولون : إنها تشبه " سباق الخيل " . العبرة فيه دائما بنقطة الانطلاق ! البداية. لكني أقول: نعم، تشبه القصة هذا السباق، لكن العبرة فيه بنقطة النهاية !! إذ كيف يتمكن الأديب من إنهاء هذا السباق في الوقت الناسب، وبالطريقة التي تجعل عمله يظل عالقا في ذاكرة المتلقي، على النحو الذي لا يبارحه ؟؟! وهذا هو مضمار الاختلاف ..

" عندما جاء(حسن) لرؤية الأولاد كان هو أيضا مختلفا، كان رقيقا حانيا يتلمس الطريق لقلبها، ولما كانت ما زالت في فترة العدة فقد كان قرار العودة فوريا وسريعا.... بعد أيام سألته :

ــ ما الذي غيرك يا حسن؟ .

قال :

ــ لم أطق بُعْدِي عنكم ..

وأنتِ.. ما الذي غيرك؟.

قالت ،"وهي تبتسم في خفر":

ــ " أردت أن أكون امرأة" .....

فالكاتبة حقيقة ، أجادت في تدبير نقطة النهاية ،علي هذا النحو الذي جعل من عبارتها الأخيرة قنبلة دوى صوتها في فضاء القصة، وحملت في هذه العبارة اللافتة":

ــ " أردت أن أكون امرأة"!!! ....

---

(1) الإسلامية والمذاهب الأدبية ص: ٢٥ .للدكتور : نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ رابعة ــ ١٩٨٥م ــ بيروت .

.. وهل كانت "نادية" البطلة، غير امرأة ؟؟!

نعم، المرأة عندما تصل بحياتها هي ، وليس غيرها، إلى نقطة الانفصال "غير العودة"، لا تكون امرأة، لا تكون امرأة كما أرادها الله ورسوله .. امرأة صالحة، تلك التي قال فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم):" الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة .....[1]" وهذا الصلاح لم يكن مقصد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) منشودا منه ؛ كثرة صلاتها وصيامها وزكاتها إن كان لها مال ، وحجها إن استطاعت إلى ذلك سبيلا !! وحسب ، وإنما الصلاح المنشود إلى جانب هذا كله، بل وفوقه: أن تكون امرأة !!. امرأة تصلح للحياة ، وتُصلِح في بيتها من شأن الحياة !!

فليت بناتنا وزوجاتنا وأخواتنا، يكن "امرأة "!! مثلما نوت "نادية " زوج "حسن" أن تكون "امرأة"... لِتَكُنَّ يا زوجاتنا نساءا بحق وحقيق ... فلا نريد منكن أن تكن غير ذلك ،، حتى لو كنتن وزيرات أوعالمات، أو حتى سائقات تاكسي !! ..

فمثل هذه الكاتبة التي تغترف من معين التصور الإسلامي ، ونحيا الواقع المستظل بعقيدة الإسلام لابد أن تكون بنتا لهذا الواقع ، بنتًا لهذه البيئة ، تنهل منها، وتنبثق أرومتها من تربتها الخصبة ، فتشعر بمشاعر مجتمعها وتعاني من معاناته ،فتأتي تجربتها ممتزجة بعبير هذا الواقع ومضمخة بأريجه . ومن ثم ، تصبح العلاقة وطيدة بين الواقع والأديب ، وإذا كان المجتمع ليس مثاليا ملائكيا ، فليس بالقطع مجتمعا من الأبالسة أ والشياطين ، واعتراف الإسلام ؛ الدين الحيوي الذي يشكل هوية الكاتبة بالفضائل والقيم الإنسانية والروحية الجميلة ، وحضه علي اعتناقها والتشبث بها، لا يلغي اعترافه ــ في الوقت ذاته ــ بالنقائص في حياة البشر "فألهمها فجورها وتقوها"[2] بل يدعو إلى الاعتراف بها وإبرازها

(1) ورد في سنن الترمذي فيما رواه عن عبد الله بن عمر بن العاص..راجع شرح سنن الترمذي للسندي والحديث برقم (٣١٨٠) .

(2) سورة الشمس آية (٨) .

وتصويرها للتنفير منها ، وبعث القوة في الذات للتخلي عنها ، وليس الإغراء بارتكابها أو السير في ركابها.

تصوير المبدع نماذجه لابد أن يكون نابعا من الواقع الحي المـوَّار ، الذي يموج بالحركة والثورة في وجدان المتلقي ؛ لان الأدب يجب أن يعيش الحياة بشمولها واتساعها ، قوة وضعفا، هبوطا وارتفاعا ، تجليا وانحطاطا ... فلا يهمل إلى جانب السمو، لحظة الضعف أو السقوط ، (فالفن الحقيقي ، لا يختار نماذجه من أمثلة الخير والحب والفضيلة وحدها ، بل يقدم شتي النماذج ، خَيِّرها ،وشريرها، عاليها و سافلها ، وإلا انعدمت الحركة الفنية ، والصراع النفسي ، إنها معاناة أصيلة ونابضة ، إنها تحرك الإثارة والتحريض ، وتوقظ هاجع الفكر بالنسبة للمتلقي ، وتبعث في نفسه لونا من ألوان القلق العظيم ، وتحرمه الرضوخ للكسل والسلبية والأنانية ، إنها تجر المتلقي للمشاركة والحركة ، والاستجابة بالقول والعمل ... وهذا هو الفن العظيم)[1].. إلا أن لحظة السقوط أو الضعف أو الانهيار ينبغي ألا تشمل في اللوحة إلا مكانا ضئيلا ، فننظر إليها علي أنها لحظة ضعف ... مرض لا غير ، ينبغي أن ينهض منه في قوة وعافية ، يلحق بالركب ، ويمسك بتلابيب السعادة التي تنحو به نحوا آمنا في المجتمع ... تلك كانت أهم القيم والطاقات الإبداعية التي تميز النتاج الأدبي المستدعى من الواقع في إطار رؤية أو تصور خاص يحكم العملية الإبداعية ، شكلا وموضوعا ، يحميها من التدهور أو الانهيار ، فتأتي في الشكل أو الإطار الفني القادر علي منحها تواصلا معينا ، فيتعلق المتلقي بها حتى بعد انتهائه من قراءة العمل الإبداعي ، لما يجد فيه من انطباعات ، تكاد تتصل به شخصيا ، فلابد أن تكون هناك صلة ما ، بين القاص وشخوصه المستدعاة من الواقع ، فـ " الأديب " الحقيقي ـ كما يقول الناقد ميشال بوتور : هو الذي يبني أشخاصه شاء أم أبى ، علم ذلك أم جهل ، من عناصر مأخوذة من حياته ، وما أبطاله إلا أقنعة يروي من ورائها قضية ، ويحكم من خلالها بنفسه)[2] .

---

(1) حول الدين والدولة ص ٥٦ ـ سابق.

(2) نقلا عن مجلة المشكاة المغربية ـ عدد ٣/١٩ ربيع الاخر ـ ١٤٠٩هـ.

قلنا : إن الكاتبة حقيقة ، أجادت في تدبير نقطة النهاية ،علي هذا النحو الذي جعل من عبارتها الأخيرة قنبلة دوَّى صوتها في فضاء القصة، وحملت في هذه العبارة اللافتة" حزمة الضوء الكثيفة التي انفجر نورها في وجوهنا :

ـ " أردت أن أكون امرأة"!!! ....

.. وهل كانت "نادية" البطلة، غير امرأة ؟؟!

بهذه " القفلة !!" ـ إن صحت ـ تكون عبرت الكاتبة بصدق عن الهدف ؛ المضمون الإنساني العظيم لقصتها . فها نحن نرفع لهذا الدرس وهذه العرامة الوجدانية القبعة، تحية وتقديرا . حيث نجحت الكاتبة أن تحول هذه المادة الخام إلى فن حقيقي .. فن ينهل من الحياة وللحياة ، حاولت ولها شرف المحاولة، أن تعبر عن جانب إنساني حيوي من الواقع المعاش، بدرجة ممتعة ، عن معين ثر من معَنِ النفس والحياة ، محاولة تتميز بالأصالة والصدق ..

فليت نساءنا وبناتنا الفضليات، اللاتي في حياتهن مشكلات زوجية، أن يجربن هذه الوصفة السحرية؛ من القصة ... ويرجعن إلى صوابهن ... ويرجعن " امرأة" كما فعلت " نادية" بطلة القصة.. وأن يكون أزواجهن كذلك رجالا مثل " حسن " .. فـ "الله" عز وجل جعل من خلق الزوجات (النساء) لنا آية بديعة، فقال سبحانه " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون [1] " .

فتفكروا أيها الرجال ، وأعْمِلُوا عقولكم وقلوبكم، عندما تُعْمِل النساء عواطفهن ، فلابد أن تجد هذه العواطف (شذى الرياحين وعبيرها) فضاءً حالما عندكم، يتسع لهذا العبير ويحميه من التبدد، فلاشك "أنهن رياحين خُلِقْنَ لنا"!!.فهل من مداعب لرياحينه ؟؟!..

(1) سورة الروم..... الآية : (٢١).

المصادر والمراجع :

أولا : المصادر

١) قصة " الغجرية " للكاتبة : إيمان القدوسي ــ جريدة " المصريون" الإليكترونية ــ إصدار يوم الأحد : ٢٠٠٨/٣/٢م.

ثانيا : المراجع :)

١) الأدب المقارن ص ٣٨١ دكتور محمد غنيمي هلال ــ دار نهضة مصر ــ ثالثة ــ د ت ــ القاهرة

٢) الإسلامية والمذاهب الأدبية . للدكتور : نجيب الكيلاني : ــ مؤسسة الرسالة ــ رابعة ــ ١٩٨٥ م ــ بيروت .

٣) (بلا شك " مكتوب"): منشورة في صحيفة" المصريون" في :٢٠٠٨/١/٣١م)..

٤) حوار مع هؤلاء : ص ٦٣ (كتاب) للأستاذ عبد الرحمن أبو عوف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة رقم (٢) الثقافة الجماهيرية مصر .

٥) رحلتي مع الأدب الإسلامي : ص ٢٨ ــ مؤسسة الرسالة ــ أولى ــ ١٩٨٥م.

٦) فن القصة ص ٩٣ ــ د.محمد يوسف نجم ــدار الثقافة ــ بيروت .

٧) في الغزو الفكري. الدكتور : أحمد السايح ، كتاب" الأمة" عدد[٣٨] ــ قطر..

٨) في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية ص:٣٨ ،٣٩ للدكتور : محمد أحمد العزب ــ المجلس الأعلى للثقافة ــ١٩٨٣ ــ القاهرة .

٩) الروائي والأرض : د .عبد المحسن طه بدر ــ دار المعارف ــ ثالثة ــ ١٩٨٣ ــ مصر .

١٠) (حول الدين والدولة . ص : ٥٤ : نجيب الكيلاني ــ دار النفائس ــ ثالثة ــ دت ــ بيروت .

١١) حوار تلفزيوني أجري معه في قناة" الجزيرة " في برنامج "حوار مفتوح " مع الإعلامي القدير : غسان بن جدو . في مارس (آزار) ٢٠٠٨ م .

١٢) نجيب محفوظ يتذكر : جمال الغيطانى ــ مطابع أخبار اليوم ــ ثالثة ــ مصر .

١٣) سنن الترمذي فيما رواه عن عبد الله بن عمر بن العاص..راجع شرح سنن الترمذي للسندي . والحديث برقم (٣١٨٠) ..

١٤) الواقعية ص ١٠٥ ــ دكتور ديمين كرا نت ترجمة ــ عبد الواحد لؤلؤة ــ

١٥) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد : ص ٣٣ ــ بتصرف د / أحمد بسام ساعي ــ دار المنارة ــ أولى ــ ١٩٨٥ م ــ جدة .

١٦) الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني مقال للدكتور / حلمي محمد القاعود ــ مجلة الفيصل عدد ٢٢١ المملكة العربية السعودية ..

١٧) مجلة " المشكاة " المغربية ــ عدد ٣/١٩ ربيع الاخر ــ ١٤٠٩هـ. المغرب ..